التطور التاريخي لتدوين اللغات الجزرية

م.د. شاكر محمود إسماعيل
كلية
التربية / جامعة ديالى

المقدمة

لقد كان اختراع الكتابة أهم حدث تاريخي في العصور القديمة نقلت المعرفة البشرية الى مرحلة متقدمة ، لذلك كان لاهمية هذا الموضوع ، ومعرفة التطورات التاريخية التي طرأت على الكتابة وطرقها المختلفة الدافع لنا لدراسة هذا الموضوع .

وسنحاول أن نتطرق في هذا البحث المتواضع الى عدة موضوعات نبدأها باهيمة الكتابة فضلا عن المكان الذي ظهرت فيه أقدم وسيلة من وسائل التدوين ، ومن ثم نتناول التطويرات التي أوصلت الكتابة الى الخط الأبجدي (الهجائي) فضلا عن ذلك سنتناول تطورات الكتابة في اللغات الجزرية متسلسلة تاريخيا ، وقد ذيلنا البحث بخاتمة ذكرنا فيها ابرز النتائج التي توصلنا إليها .

ـ أهمية الكتابة

يعد اختراع التدوين (الكتابة) الإنجاز الحضاري الأكبر في تاريخ البشرية في العصور القديمة والحديثة على حد سواء ، إذ فاق الإنجازات الحضارية الأخرى قاطبةً،و كان له الأثر الأهم في نقل ألفاظ اللغة من العصور السابقة إلى العصور اللاحقة ، وعن طريق التدوين أمكن التعرف على الحضارات السابقة وأصولها ، وبفضله نقلت تجارب الأمم السابقة وخبراتها وسجلت الأحداث والوقائع التي أراد الإنسان القديم أن يدونها لمن يقرأها بعده ، وبالتدوين (الكتابة) ارتبطت معظم الإنجازات الحضارية التي تلته حتى وقتنا الحاضر .

ولولا اللغة المكتوبة بالدرجة الأولى لاستحال نقل الخبرة الإنسانية عبر الأجيال ولانعدم الانتفاع بتلك الخبرة في مجرى تطور المجتمع الإنساني ،

ولتحتم والحالة هذه على كل جيل أن يبدأ مجددا من المكان الذي بدأ به سلفه عند محاولته التعرف على نفسه وعلى العالم الذي يعيش فيه[١] .

ومع أهمية التدوين في المحافظة على اللغة ونقلها من جيل الى جيل فانه كان لأسلوب التدوين ونوع النظام الكتابي المستخدم اثره في مدى دقة التعبير عن أصوات اللغة ، فقد يعجز أسلوب معين من أساليب الكتابة عن التعبير عن بعض أصوات اللغة المراد تدوينها ونقل ألفاظها[٢].

ـ الموطن الأول للكتابة

وقد كانت بلاد وادي الرافدين مهد الحضارات الإنسانية الأولى في تاريخ العالم القديم ، فمن أرضه، وبفضل قدرة إنسانه العظيم الذي استطاع أن يسخر ما منحته الطبيعة له ، انطلقت الإنجازات الحضارية المتعاقبة إلى البلدان المجاورة ، فمن الزراعة وتدجين الحيوان والفخار والعجلة والتعدين، كانت الطفرة الكبرى في حياة البشرية ، ألا وهي اختراع أول واقدم وسيلة من وسائل التدوين للواردات الزراعية وللوقائع والأحداث ، تلك الوسيلة التي ظهرت في الجزء الجنوبي من بلاد وادي الرافدين في الفترات الأولى للعصور التاريخية الإنسانية .

واتفق معظم الباحثين وبحسب الأدلة التاريخية على إن أول مكان ظهرت فيه الكتابة (التدوين) كان في بلاد سومر في القسم الجنوبي من بلاد وادي الرافدين بحدود(٣٥٠٠-٣٢٠٠ ق.م) ، وقد كانت هذه الكتابة في أول أمرها على شكل كتابة صورية ،أي رسم صورة الشيء المراد كتابته رسماً ،ومن ثم تطورت إلى علامات مقطعية (٣) .

وهناك عدد من الباحثين يجعل هذا الخط معاصرا للخط المصري القديم (الهيروغليفي) في بلاد النيل بحدود (٣١٠٠ ق .م) (٤) وبناءً على أهمية هذا الحدث فقد أصبح تاريخ اختراع الكتابة (التدوين) هو الحد الفاصل بين العصور الحجرية (عصور ما قبل التاريخ) وبين العصور التاريخية .

وتعد الكتابة المسمارية حسب رأي العديد من الباحثين من الكتابات التي استخدمت خطاً معقداً إلى أقصى حد (٥)، إذا ما قورنت مع الخطوط الأخرى ولاسيما الخطوط الأبجدية (الهجائية)، لما لها علاقة بموضوع بحثنا .

وإن من اعظم مآثر السومريين خطهم الذي سمّي بالخط المسماري كما ذكرنا لأنه مؤلف من خطوط صغيرة و لها رؤوس تجعلها تشبه المسامير ، و انتشر الخط السومري في بابل و آشور و بلاد الفينيقيين و غيرهم من الشعوب ،و هو اول نافذة ثقافية يفتحها السومريون لشعوب العالم كلها (٦).

وإن أول من أطلق مصطلح (الكتابة المسمارية) على كتابة وادي الرافدين هو العالم الإنكليزي(T.H. Regius) أستاذ لغة أقوام الجزيرة العربية (السامية) في جامعة اكسفورد وكان ذلك في عام (١٧٠٠ م) ، و بقيت هذه التسمية سائدة على الكتابة التي أوجدها العراقيون القدامى حتى وقتنا الحاضر(٧).

وبعد مراجعة المصادر يتبين إنها تجمع عموماً على إن الكتابة المسمارية قد مرت بثلاث مراحل اقترنت بها عملية تطورها التاريخي إذ إن المرحلة الأقدم سميت بمرحلة الكتابة الصورية وهي عبارة عن رسم صورة الشيء المراد التعبير عنه بصورة كاملة ، ومن ثم انتقلت الى المرحلة الثانية أي المرحلة الرمزية وهي رسم جزء أو رمز من الشيء المراد التعبير عنه بدلاً من الشيء كله، وأخيرا انتقلت الى المرحلة الصوتية او المقطعية التي جاءت منها تسمية الكتابة بالكتابة المسمارية، إذ تطورت الكتابة بشكلها في هذه المرحلة الى رسم علامات اسفينية تشبة المسامير بسبب قلم الكتابة المستخدم وهو من القصب في اغلب الأحيان (٨) .

وقد عاصرت اللغة السومرية في جنوب العراق اقدم لغة جزرية (٩) مدونة ، ألا وهي اللغة ألا كدية (١٠).

ـ اللغة الاكدية

ودونت اللغة الاكدية بالخط المسماري الذي كان قد ابتدعه أسلافهم السومريون لتدوين لغتهم السومرية وقد كان لاستخدام هذا الخط أثره الواضح على اللغة ألا كدية [١١]، فمهما كان النظام الكتابي المستخدم لتدوين لغةٍ ما ، صادق التعبير ودقيق النقل ، فانه عاجز عن نقل أصوات اللغة بصورة كاملة ، فضلاً عن انه إذا كانت اللغة المستخدمة لنقل ألفاظ لغة معينة هي كتابة وجدت اصلاً لتدوين لغة أخرى تختلف عن اللغة المراد تدوينها أساساً، فإن نسبة الدقة في نقل ألفاظ اللغة والتعبير عن أصواتها ستكون ضئيلة[١٢] ، وهذا الذي حدث للغة الاكدية التي دونت بالخط المسماري الذي وجد أصلاً لتدوين اللغة السومرية .

لذلك يجد الباحث الفاحص و المدقق تشويهات كثيرة وقعت على اللغة ألا كدية شقيقة اللغة العربية وأخواتها ،نتيجة لاستخدام الخط المسماري في تدوين هذه اللغة ، منها على سبيل المثال اختفاء الأصوات الحلقية ولا سيما (الحاء والهاء والعين) من هذه اللغة ، إذ لم تستطع المسمارية المقطعية ان تعبر عنها بشكل وافٍ و كافٍ للمستشرقين الذين فكوا رموزها[١٣].

ومن خلال قراءة النصوص المسمارية تبين بان الاكديين أنفسهم أشاروا إلى لغتهم بمصطلح اللغة الاكدية(لِشان أكدي Lišān AKKadi) أي اللسان الاكدي ، او اللغة الاكدية [١٤].

ويبدو ان استخدام اللغة الاكدية بصورة رسمية قد ارتبط بالدولة الاكدية التي أسسها سرجون الاكدي بحدود العام (٢٣٧١ق.م) التي استمرت في الحكم الى حدود العام (٢٢٣٠ ق.م) [١٥].

عاشت اللغة ألا كدية بلهجاتها البابلية والآشورية مدة طويلة جاوزت الألفين وخمسمائة سنة، وانتشرت في منطقة واسعة وأقاليم متعددة وتفرعت عنها لهجات كثيرة تميزت كل منها بخصائص معينة أملتها البيئة التي عاشت فيها، إلا أنها لم تبعدها كثيرا عن الأصل الذي تفرعت عنه وتقطع صلتها به ، ولاسيما ان ما دون

من تلك اللهجات كان بالكتابة نفسها ، وهي الكتابة المسمارية التي كانت من العوامل المساعدة على الحفاظ على عدد من هذه الخصائص وعلى انتمائها إلى لغة واحدة [١٦].

ومن خلال التطورات السياسية والحضارية التي عاشتها منطقة اللغات الجزرية المتمثلة بشبه الجزيرة العربية وببلاد وادي الرافدين وبلاد الشام ، فضلاً عن بعض المناطق المجاورة ،التي تعرضت لهجرات بعض الأقوام العربية ، فقد تأثرت اللغات الجزرية كلاً حسب منطقة وجودها بتلك التطورات ،وهي مسألة بديهية في تاريخ الحضارات القديمة ولاسيما في بلاد وادي الرافدين ،ففي فترة الازدهار السياسي لسلالة سومرية تنتعش اللغة السومرية وتكثر نصوصها ،أما في فترة الازدهار السياسي لسلالة اكدية او بابلية او آشورية تزدهر اللغة ألا كدية وتكثر نصوصها .

ـ انتشار الخط المسماري

تشير الأدلة التاريخية والأثرية إلى أن الخط المسماري انتشر في عصر مبكر إلى خارج بلاد وادي الرافدين فبعد قرنين تقريبا من ظهور الكتابة في بلاد سومر، أي بحدود(٣٠٠٠ق.م) ظهر في مدينة (سوسة: الشوش الحالية) عاصمة عيلام الخط المسماري، لان بلاد عيلام كانت دائماً تحت تأثير المقومات الحضارية التي نمت وترعرعت في بلاد وادي الرافدين [١٧]،وهناك رأي جديد قدمه احد الباحثين في جامعة الفاتح الليبية مفاده ان اللغة المصرية ذات الخط الهيروغليفي ،قد اقتبست خطها (وهو عبارة عن رسم صور للاشياء) من الخط المسماري العراقي ، وقد دعم رأيه هذا بالكثير من الأدلة التي تؤكد عروبية مصر وحضارتها وكتابتها ،ويصف كل من يقول بابتعاد مصر عن حضارات ولغات العرب في الشرق (بلاد وادي الرافدين وبلاد الشام) ويسمونها الحضارة الفرعونية ،يصفهم بدعاة الاقليمية الاستعمارية ضد العرب وحضاراتهم وألف بذلك كتاباً قيماً بمجلدين [١٨]، ويبدو أن وحدة فكرة الخطين (المسماري والهيروغليفي) في رسم صور الاشياء كانت أحد دوافعه في هذا الرأي ، فضلا عن الاتصال الحضاري بين البلدين الذي يرجع الى اصول بعيدة.

كذلك ظهر الخط المسماري (٢٤٥٠-٢٤٠٠ ق.م) في مدينة (ابلا) تل مرديخ في شمال سوريا ،وفي مستهل الألف الثاني قبل الميلاد أي في حدود ١٩٥٠ ق.م ظهر الخط المسماري في آسيا الصغرى في مدينة (كول تبه: كانشر) في الأراضي التركية، التي انتقل اليها من بلاد آشور، وكذلك في بلاد الشام صار الخط المسماري وسيلة التدوين المتعارف عليها ابتداءً من (١٨٠٠ ق.م) ، وبحدود (١٤٠٠ق.م) استعمل الحثيون في بلاد الأناضول الخط المسماري، وفي هذه الأثناء أصبح الخط المسماري وسيلة التدوين للوثائق الدبلوماسية المتبادلة لملوك وحكام بلاد وادي الرافدين وبلاد الشام وبلاد النيل وكان(الاورارتيين) في أرمينيا آخر من استعار الخط المسماري في كتابة لغتهم في النصف الثاني من الألف الأول

قبل الميلاد[١٩]، ويبدو ان تأثير هذا الخط كان قوياً في مرحلة ازدهاره ، مما جعله ينتشر الى المناطق المجاورة التي اقتبسته بدورها لعدم وجود خط لها مدون في ذلك التاريخ .

ـ تطورات الخط المسماري

لقد أكدت النصوص السومرية المكتشفة اعتزاز الإنسان العراقي القديم بخطه (المسماري) الذي يمثل لهم إحدى أساسيات الإرث الحضاري العراقي ،حيث تبين من خلال رسالة بعث بها الملك العراقي الآشوري سرجون الثاني (٧٢١-٧٠٥ ق.م.) إلى أحد موظفيه يوبخه فيها لانه كتب له برسالة استخدم فيها الخط الآرامي و اللغة الآرامية و لم يستخدم اللغة العراقية المسمارية[٢٠].

وقد تعرض الخط المسماري الى تطورات قد لا تكون جذرية من الأقوام التي استخدمت هذا الخط سواء كانوا من العراقيين (اكديين وبابليين وآشوريين) أو عربا في بلاد الشام وشمال بلاد النيل ، أو أجانب كالعيلامين والحثيين وغيرهم ، نتيجة لتطور حياتهم واستخدامهم لمفردات جديدة لم تكن موجودة قبلهم ، إلا إن أول تطور جذري طرأ على الخط المسماري هو التطور الذي قام به الكنعانيون[٢١] في بلاد الشام .

لقد طور الاوغاريتيون الخط المسماري العراقي نتيجة لتطور الحياة ولرغبتهم في تسهيل هذا الخط وجعله ملائماً لظروف التطور الحضاري واللغوي لهم[٢٢]، لذلك حولوا العلامات المسمارية، التي يتفق الباحثون على أنها مئة علامة تقريباً ، إذا ما استثنينا منها العلامات والرموز التي تقوم مقام الكلمات والعلامات الدالة، إلى علامات هجائية برسم مسماري وعددها ثلاثون علامة ، وتؤرخ بما بين (١٤٠٠-١٢٠٠ ق.م) [٢٣].

وترجع اللغة الاوغارتية إلى مجموعة اللغات الجزرية الغربية ويقترن الخط الأبجدي المسماري الاوغاريتي مع الخط المسماري العراقي في كثير من اوجه الشبه ، في الشكل والنطق ، وهذا ما يدعونا إلى القول بأن الأبجدية الاوغاريتية ما هي إلا علامات مسمارية مقتبسة ومطورة عن الخط المسماري العراقي من فترة العهد البابلي القديم ، وقد أجرى عليها سكان مدينة (اوغاريت) رأس الشمرا اختزالاً وتحويراً مهمين ، فضلاً عن إنها تكتب كما يكتب الخط المسماري العراقي من اليسار الى اليمين[٢٤].

وقد طرأ تطور كبير على العلامات المسمارية والهيروغليفية في منطقة صحراء سيناء ، مما حدا بالعلماء الى عد كتابة سيناء المرحلة الوسطى في تطور الكتابة الهيروغليفية ، وبين مرحلة الكتابة بالحروف الابجدية ، إذ تمكن اهل سيناء من تحويل الصور المقطعية المقتبسة من الهيروغليفية ، لقرب سيناء من بلاد النيل ، الى اثنين وعشرين حرفا ، وقد اصبحت هذه الحروف بناءً على هذا الرأي الاساس الذي قامت عليه الابجديات اللاحقة في بلاد الشام (الاوغاريتية) وفي شبه الجزيرة العربية (الخط المسند) [٢٥] .

ويبدو في ضوء ما تقدم أن للتنقلات التجارية بين بلاد الرافدين وبلاد الشام وبلاد النيل فضلا عن مناطق شبه الجزيرة العربية ، الاثر الكبير في انتقال هذه العلامات والخطوط وتطويرها بحسب تقدم الحياة وبحسب حاجة الانسان الى هذه التطويرات ، من بلاد الرافدين الى بلاد الشام ، ومنها الى صحراء سيناء ، ومن ثَمّ الى جنوب شبه الجزيرة العربية على اساس موقع صحراء سيناء في وسط الطريق التجاري بين بلاد الشام وبين الجنوب .

ـ ظهور الخط الابجدي

لقد كتبت النصوص الاوغاريتية في الأغلب على الرقم الطينية ، وهي تشبه في ذلك الرقم العراقية التي وردت بكثرة ، في العصر البابلي القديم إذ استخدمت العلامات المسمارية البابلية الافقية و العمودية والمائلة ، وبأشكال جديدة فرادى او مجموعة ، وتمثل كل علامة مسمارية او عدة علامات أحد حروف الأبجدية ، بخلاف النظام الكتابي البابلي الذي يمثل كلمات او مقاطع او علامات دالة [٢٦].

ونتيجة لظهور الخط الأبجدي (الهجائي) المحدود العلامات والسهل ، موازنة بالخط المسماري الكثير العلامات والمعقد ، فكانت هذه من العوامل المهمة التي ساعدت على انتشاره الواسع وتغلبه في النهاية على الخط المسماري ، مع التطويرات والتحويرات التي طرأت عليه من قبل الأقوام الجزرية الأخرى التي استعملته .

وانتقل بعد ذلك الخط الأبجدي من الاوغاريتيين الى الفينيقيين ، والفينيقيين أحد الاقوام التي نزحت من شبه الجزيرة بحدود الألف الثالث قبل الميلاد ، ومنهم انتقلت الحروف الهجائية الى الإغريق واليونان بين سنة (٨٥٠ -٧٥٠ ق.م)[٢٧] مع تحوير في هذه الحروف بما يناسب نطق أصواتهم، ومن ثم اصبحت أم الابجديات جميعا [٢٨] .

ويبدو من خلال مراجعة شكل الخط الاوغاريتي (المسماري الأبجدي) وموازنته مع شكل الخط المقابل له في الخط الفينيقي [٢٩] ، انه قد تطورَ، تطوراً ملحوظاً ،إذ اختفت العلامات المسمارية وتحولت إلى علامات أو نقوش جديدة تمثل عدد علامات الأبجدية الاوغاريتية نفسها،ومن ذلك نستطيع القول أن الاوغاريتيين استطاعوا ان يحولوا الكتابة المسمارية المقطعية والكثيرة العلامات ويختزلوا علاماتها إلى ثلاثين علامة مسمارية تمثل الأصوات الأبجدية (الهجائية) ، بينما طور الفينيقيون هذه العلامات المسمارية الى علامات جديدة تختلف عن شكل المسامير ولكن لها الأصوات الأبجدية نفسها التي كانت موجودة في الخط الاوغاريتي ، وهذا يعد تطوراً مهماً قد نقل شكل العلامات المسمارية الى علامات أبجدية يقابلها أصوات أبجدية .

واعظم عمل قام به الكنعانيون للإنسانية هو اختراعهم الأبجدية(الهجائية) ، وهي من أهم الاختراعات في تاريخ البشرية ويتفق الباحثون على ان الحروف الأبجدية في العالم بدأت من كتابات الأقوام الجزرية الشمالية الغربية ، الذين تمتد

مناطقهم من طور سيناء إلى أقصى حدود بلاد الشام شمالاً وغرباً ، إذ وجدت في هذه المناطق أنواع كثيرة من النقوش الجزرية بالحروف الأبجدية [٣٠].

ودونت اللغة الاوغاريتية بعلامات مسمارية تمثل الحروف الأبجدية الجزرية بصورة عامة ، وقد تجاوز الاوغاريتيون في كتاباتهم الحركات وأكدوا على كتابة الحروف الصامتة فقط [٣١] ، في حين دونت اللغة الفينيقية بكتابة أبجدية يبدو أنها كانت تضم (٢٢) رمزاً او حرفاً صامتاً، إذ لم يستخدم الفينيقيون حروف العلة في كتاباتهم ، وهي مرتبة على ترتيب (ابجد ـ هوز ـ حطي ـ كلمن ـ سعفص ـ قرشت) واصبح اتجاه الكتابة من اليمين إلى الشمال ، وتؤرخ اقدم الكتابات الأبجدية الفينيقية إلى القرنين العاشر والتاسع قبل الميلاد ، إلا إن أغلب النصوص الفينيقية تعود الى القرن الخامس قبل الميلاد [٣٢] .

ـ انتشار الخط الأبجدي

لقد حمل الآراميون بعد ذلك الحروف الأبجدية من سواحل البحر الابيض المتوسط الشرقية الى اسيا حتى الهند ،مع تحويرات على شكل الخط الأبجدي المستخدم [٣٣] ، ويبدو أن امتهان الآراميين التجارة وتنقلهم إلى مناطق تجارتهم كان من الأسباب المساعدة لانتشار خطهم الأبجدي بصورة سريعة حيث استخدموه أينما حلوا .

ودونت اللغة الآرامية بخط قديم مشتق بشكل مباشر من الخط الفينيقى، وقد كتبت أول الأمر على الحجر والطين منذ القرن التاسع قبل الميلاد، ثم استخدم المداد لأول مرة للتدوين على البردي والخزف وذلك في حدود القرن السادس قبل الميلاد [٣٤] . ولم يقتصر الأمر على انتشار الخط الأبجدي بل شمل انتشار اللغة الآرامية أيضا إلى المناطق التي كانت تصلها تجارتهم ،فضلاً عن انتشار الخط الآرامي إلى أقوام عديدة في أسيا، اذ كتبت به لغاتها، كذلك اقتبس اليهود خطهم الذي كتبوا به كتب التوراة من الخط الآرامي بين القرنين السادس والرابع قبل الميلاد [٣٥] .

وقد استخدم الانباط خطاً خاصاً بهم مشتقا من الخط الآرامي ،الا ان بعض حروفه تتصل بما قبلها ،فهو بذلك يمثل اقدم الخطوط المستخدمة لتدوين اللغات الجزرية بحروف متصلة مع بعضها البعض [٣٦] . كما ان العرب الشماليين اخذوا خطهم من الخط النبطي الذي هو شكل من أشكال الخط الارامي ،وهذا هو الخط الذي كتب به القرآن الكريم في مراحله الأولى وتطور عنه الخط العربي الحديث[٣٧].

كذلك استخدم السريان في العصر المسيحي خطاً خاصاً يسمى بالخط السرياني القديم (السطرنجيلي) وهو وان اختلف عن الخط الآرامي القديم ببعض الخواص فانه يتفق واياه باتجاه الكتابة وبالشكل العام للحروف ، وقد انتشرت السريانية بعد ان كانت في منطقة محدودة في شمال الشام لتصبح لغة جماعة كبيرة في شمال بلاد وادي الرافدين وبلاد الشام وتكون السريانية مع لغة التلمود البابلية والمندائية مجموعة لغوية واحدة يطلق عليها المجموعة الآرامية الشرقية وقد

انقسمت السريانية بدورها إلى مجموعتين شرقية وغربية ، وتكمن اهمية اللغة السريانية في إنها كانت المعبر الذي انتقلت به الثقافة اليونانية الى الحضارة العربية الإسلامية [٣٨] .

وقد اخذ الارمن والفرس والهنود خطوطهم من أصول آرامية ،وهكذا يكون الخط الفينيقي قد انتقل على ايدي الاراميين الى نصف العالم الشرقي ،وقد تفرعت من القلم الارامي اقلام عديدة متشابهة، والمعروف منها الى الان القلم السامري والتدمري والنبطي ،ومن الأخير نشأ القلم الحميري العربي الذي تولد منه القلم الكوفي ومن هذا نتج القلم النسخي [٣٩] .

ـ النقوش العربية الاولى

جاءت النقوش العربية الجنوبية مدونة بما يعرف بالخط اليمني المعروف عند العرب بالخط المسند، وهو مشتق اصلاً من الخط الكنعاني، ويشبهه في كثير من الوجوه ،الا انه يمتاز عنه بجمال التنسيق وبالإشكال الهندسية ،ويكتب غالبا من اليمين الى الشمال، ويبلغ عدد حروفه تسعة وعشرين حرفاً ترمز الى الأصوات الساكنة فقط ،ولا توجد حروف او رموز لأصوات المد الطويلة أو القصيرة ،وتضم الكتابات العربية الجنوبية النقوش المعينية والسبئية والحميرية والقتبانية والحضرمية وترجع أقدمها إلى القرن السادس الميلادي [٤٠] .

وان معرفتنا بالبداية التاريخية للغة العربية قد تكون اقل بكثير من معرفتنا بالبداية التاريخية للغات الجزرية الأخرى، فنحن نعرف كثيرا عن بداية الاكدية كما نعرف قدرا عظيما من بداية الآرامية ولهجاتها، وكذلك سائر اللغات الجزرية الأخرى ،ما عدا البداية الحقيقية للغة العربية التي لا نعرف بدايتها بصورة دقيقة ، ذلك لان نصوص العربية الجنوبية في نقوش جنوبي الجزيرة العربية وشماليها، لا يمكن للباحث ان يتخذ منها البدايات الأولى لتاريخ اللغة العربية ، فلا يمكن ان تكون نقوش معين وسبأ وحمير في بلاد اليمن، ولا النقوش الصفاوية واللحيانية والثمودية في شمالي الجزيرة ، أصولاً تطورت الى العربية الفصيحة التي عرفناها في نصوص الأدب الجاهلي [٤١] .

ودونت اقدم النقوش الصفاوية واللحيانية والثمودية بخط مشتق اصلاً من الخط المسند ،فالنقوش اللحيانية مدونة بخط شبيه بالخط المسند ويكتب من اليمين الى الشمال، في حين جاءت اتجاهات الخط الثمودي غير ثابتة فتارة يكتب من اليمين الى الشمال ، وأخرى من الشمال إلى اليمين وكتبت الحروف في جميع هذه النقوش متفرقة وخالية من علامات المد كما كانت مجردة من الاعجام (النقط)[٤٢] .

ودونت اللغة الحبشية بالخط المسند اول أمرها، ومن ثم اشتق منه خط خاص أطلق عليه الخط الحبشي أو الجعزي ،الذي يرجح انه اول ما استخدم في القرن الثالث الميلادي ،والخط الحبشي يكتب من الشمال إلى اليمين وهو مكون من ستة وعشرين حرفا ترمز جميعها إلى الأصوات الساكنة [٤٣] .

ـ الكتابة العربية الفصحى

وبعد ان بدأ استخدام الخط النبطي الآرامي في تدوين النقوش العربية الأولى ، اخذ شكلاً حديثاً وكتبت حروفه متصلة بعضها ببعض وهي خالية من علامات المد الطويلة والقصيرة ومن الاعجام، واشتق من هذا الخط خط عربي جديد استخدم لتدوين اللغة العربية، وهو اصل الخط العربي المستخدم حتى الان وكان هذا الخط خالياً من علامات المد ومن الاعجام وطرأت عليه تغييرا ت كثيرة ، فاستخدم نظام الاعجام واستخدم علامات لأصوات المد وعلامات للأصوات الساكنة وادخل فيه نظام الحركات، وقد أدخلت معظم هذه التطويرات في القرن الاول للهجرة أي في القرن السابع الميلادي(٤٤) .

وقد كُتِبَ للغة العربية وخطها الانتشار والخلود لنزول القرآن الكريم بها، ولاتخاذها لغة رسمية للدولة الإسلامية ، التي وصلت حدودها من مشارق الأرض الى مغاربها ، فأينما وصل الإسلام وصلت اللغة العربية ، فكان يفترض على من يدخل الإسلام ان يقرأ آيات القرآن الكريم باللغة العربية.

ومن الميزات الأساسية للغة العربية هو امتلاكها عناصر لغوية قديمة جدا، ترجع إلى اللغة الجزرية الأولى ، وهذا يدل على أن اللغة العربية كانت موجودة في مهد اللغات الجزرية القديمة او في منطقة قريبة منه (٤٥).

وان اللغة العربية على الرغم من طول الفترة الماضية عليها قبل بروزها لغة مدونة في ميدان التاريخ ، إلا أنها قد حفظت الحروف الأصلية حفظا أتم من سائر اللغات الجزرية الأخرى، ما عدا لغة الكتابات اليمانية العتيقة أي لغة معين وسبأ(٤٦) .

وإذا كانت اللغة العربية احدث لغة سامية (جزرية) دونها أبناؤها، في حين ان اللغات الجزرية الأخرى قد دونت قبل اللغة العربية بقرون عديدة ، فالاكدية دونت بحدود سنة (٢٤٠٠ق.م) والاوغاريتية دونت بحدود (١٤٠٠ق.م) ، ألا أنّ المقارنات اللغوية بين اللغات الجزرية المختلفة توضح ان اللغة العربية احتفظت بعدد من الخصائص اللغوية الموغلة في القدم التي ترجع إلى اللغة الجزرية الأم(٤٧) .

وقد اتفق معظم الباحثين على ان السبب الذي جعل اللغة العربية تحافظ على العناصر اللغوية القديمة للغة الجزرية الأولى هو نشأتها وترعرعها في بيئة صحراوية ، إذ لم تحتك بلغات أجنبية تؤثر عليها وتبعدها عن أصلها الجزري الأول ، وهو خلاف ما تعرضت له معظم اللغات الجزرية الأخرى ، وقد وجدنا هذا شاخصا لدى من تناول دراسة هذا الموضوع من الباحثين والمختصين(٤٨) ، مع أن من الباحثين من يرى أن الاصوب التسليم بظاهرة التفاعل والتأثر والتأثير بين اللغة العربية واللغات ، والثقافات الأخرى (٤٩) ويبدو أن حياة العرب البدوية وبيئتهم الصحراوية هي السبب الرئيس الذي جعلهم يحافظون على سماتهم وتقاليدهم الأصيلة وفي مقدمتها لغتهم التي حافظوا على أصولها الأولى .

الـخاتـمـة

يتبين لنا بعد هذا ان البداية الأولى لتدوين اللغات الجزرية قد انطلقت من ارض وادي الرافدين ، وإن قصب السبق في اختراع الكتابة (التدوين) يعود الى الآنسان العراقي القديم ، بفضل قدرته وابداعه ، وقبل هذا وذاك فضل الله (سبحانه وتعالى) عليه ، وكان هذا الانجاز هو الحافز الذي دفع من طوّر هذه الكتابة ليطورها الى مراحل اسهل .

وكان من نتائج الاحتكاك المتواصل بين بلاد وادي الرافدين وبلاد الشام والبلدان المجاورة الأخرى ، وللتأثيرات الحضارية العديدة لبلاد وادي الرافدين على هذه البلدان ، ولاسيما التأثيرات الثقافية ، أن انتقل الخط المسماري العراقي الى هذه البلدان كونه الخط المدون الاول .

وكانت اللغة الاكدية اللغة الجزرية الاولى التي دونت بالخط المسماري ، ومن ثم اللغة الاوغاريتية التي تطور فيها الخط المسماري المقطعي الى خط مسماري ابجدي الذي احتك بالخط السينائي ، ومن ثم تطور لدى الفينيقين الى خط ابجدي (هجائي) يمثل اصوات الحروف الأبجدية الجزرية العامة .

وقد كانت هذه التطويرات بناءً لمتطلبات تطور الحياة وطلباً للسهولة والتبسيط ، ومن ثم استمرت محاولات التبسيط والتطوير شيئاً فشيئاً على طريقة التدوين التي انتشرت فى إرجاء المعمورة ، وكلٌّ طوّرها بحسب متطلبات لغته .

الإحالات والمصادر :-

١- نوري جعفر :اللغة والفكر،(الرباط، مكتبة القومي ،١٩٧١م)ص٥٨-,٩٥

٢- عامر سليمان : اللغة الاكدية تأريخها وتدوينها وقواعدها ،(الموصل،دار الكتب ،١٩٩١م) ،ص٨٣ .

٣- لمزيد من التفاصيل ، ينظر: طه باقر : مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة ،(بغداد،مطبعة الحوادث،١٩٧٣م) ، ج ١،ص٢٥٦ ؛ سباتينو موسكاتي:

الحضارات السامية القديمة،ترجمة: يعقوب بكر،(القاهرة،دار الكاتب العربي،بلا) ص٦٣.
٤. لمزد من التفاصيل ينظر : جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، (بغداد ، ١٩٧٦ م) ، ج٨، ص ١٤٤ ـ ١٤٩؛ محمد محفل : في اصول الكتابة العربية ، مجلة دراسات تاريخية ، (دمشق ، ١٩٨١ م) ، ع٦١ ، ص ٥٩.
٥- كارل بروكلمان :فقه اللغات السامية ،ترجمة: رمضان عبد التواب ،(السعودية،جامعة الرياض،١٩٧٧م) ،ص٥٣
٦- مجموعة باحثين: الصلات المشتركة بين أبجديات الوطن العربي القديمة،(بغداد، مطبعة الرشاد،٢٠٠٢م)،وهي مجموعة بحوث ألقيت في الندوة العربية التي نظمها بيت الحكمة للفترة من ١٠-٢٠٠١/١١/١١م،ص١٣٥ .
٧-ينظر: مجموعة باحثين : الصلات المشتركة ،ص ٢٨-٢٩ .
٨- لمزيد من التفاصيل ينظر: صموئيل نوح كريمر: السومريون،ترجمة: د.فيصل الوائلي،(الكويت،وكالة المطبوعات،بلا)،ص٤٣٢-٤٣٥ ؛ وينظر: مرغريت روثن ،علوم البابليين ،ترجمة : د. يوسف حبي ،(بغداد ،وزارة الثقافة والاعلام ،١٩٨٠م) ،ص ١٩-٢٠ ؛وينظر:طه باقر ،المقدمة ، ج ١،ص٢٥٧ ؛وينظر: احمد سوسة ،حضارة وادي الرافدين،(بغداد،دار الرشيد،١٩٨٠م)،ص,١٥٤
٩ _ يشمل مصطلح اللغات الجزرية (السامية: التسمية القديمة) مجموعة كبيرة من اللغات واللهجات تشترك بخصائص عامة وقد انحدرت من اصل لغوي واحد ومن منطقة جغرافية واحدة تقريبا هي شبه الجزيرة العربية ، لمزيد من التفاصيل ينظر : شاكر محمود اسماعيل: حضارة دولة الحضر (الحظر) العربية في ضوء الكتابات القديمة، اطروحة دكتوراه غير منشورة ، (الجامعة المستنصرية ، المعهد العالي للدراسات السياسية والدولية ، ٢٠٠٥ م) ، ص ٢٥ ـ ٤١ .
١٠- عامر سليمان وآخرون: المعجم الاكدي،(بغداد،المجمع العلمي العراقي،١٩٩٩م)،ج١،ص١١ .
١١- نائل حنون: المعجم المسماري،(بغداد،بيت الحكمة،٢٠٠١م) ،ج١،ص٢٩ .
١٢- عامر سليمان: اللغة الاكدية،ص٩٨ .
١٣- مجموعة باحثين : الصلات المشتركة ،ص ٦١-٢٦ .
١٤- عامر سليمان وآخرون: المعجم الاكدي،ص١١،اشار الى ذلك استناداً الى :

The Assyrian Dictionary of the Oriented Institute of the University of Chicago , Chicago,1956-FF(CAD),vd 1/1 ,p. 272 ,p. 213 .

١٥- هاري ساكز: عظمة بابل، ترجمة: د.عامر سليمان،(الموصل،جامعة الموصل،١٩٧٩م)،ص٦٨-٧٠ .
١٦- عامر سليمان وآخرون: المعجم الاكدي،ص ١١ .
١٧- عدنان سماكة: اثر حضارة العراق القديم في الحضارات الاخرى،صحيفة القادسية الاسبوعي،(بغداد)،العدد٥٥٦٢ لسنة ١٩٩٨م، ص,٧

١٨- لمزيد من المعلومات ،ينظر: علي فهمي خشيم: آلهة مصر العربية ، ،(ليبيا، مطبعة افريقيا الشرق،١٩٩٠م)، مجلد اول،ص١٥٣-١٥٥ .
١٩- عدنان سماكة: اثر حضارة العراق ،ص٧ .
٢٠- مجموعة باحثين : الصلات المشتركة ،ص ٥٣ .
٢١- الكنعانيون اسم قديم للجزريين الذين سكنوا ساحل البحر المتوسط غربي فلسطين وقسم كبير من سورية، واسم كنعان يعني(الارض المنخفضة)وهو اسم جزري،وكان اليونان يطلقون على القسم الساحلي من ارض كنعان اسم (فينيقيا)وهي كلمة مشتقة من(phoinik) التي تعني اللون الاحمر الارجواني،على اساس ان صناعة الارجوان كانت سائدة في البلاد آنذاك،واصبحت كلمة (فينيقي)مرادفة لاسم(كنعاني) ،وكانت اللغة الكنعانية لغة اهل (اوغاريت) تل الشمرا التي تبعد بحدود١٢كم شمالي مدينة اللاذقية السورية ، وبحدود٨٠٠م عن شاطئ البحر، ،ينظر: معجم المصطلحات والأعلام في العراق القديم:حسن النجفي، (بغداد،دار افاق عربية،١٩٨٣م)، ص ١٤٩،٨٣
٢٢- د.ديرينجر :الكتابة،ترجمة وتعليق: د. عامر سليمان،(بغداد، دارالكتب ،٢٠٠١ م)، ص,١١٣
٢٣ – لمزيد من التفاصيل ينظر:خالد اسماعيل: مقدمة في قواعد الاوكاريتية،(عمان،مؤسسة النخيل،١٩٩٩م)، فقرة ٦/١، ص٢؛ وينظر: كارل بروكلمان، فقه اللغات، ص,٣٦
٢٤- ناجي زين الدين المصرف :موسوعة الخط العربي،(بغداد دار الحرية ،١٩٨٤م)،ج١، ج٢ ، ص٦٩-,٧٠
٢٥- الطاهر أحمد مكي : الخط العربي نشأته وتطوره ، مجلة اللسان العربي ، (المغرب ، ١٩٦٩م) ، ع٦ ص ٤٥.
٢٦- خالد اسماعيل : قواعد الاوكاريتية ، فقرة٥/١،ص٢-,١
٢٧- احمد سوسة:مفصل العرب واليهود في التاريخ، الطبعة الخامسة ، (بغداد ، دار الحرية ، ١٩٨١م)، ص,٣١٠
٢٨. الطاهر أحمد مكي : الخط العربي نشأته وتطوره ، ص ٤٥.
٢٩- لمعرفة تطور اشكال خطوط الابجديات الجزرية ،ينظر:الكتابات والخطوط القديمة:تركي عطية الجبوري، (بغداد، مطبعة بغداد:١٩٨٤م)،ص,٩٤
٣٠- احمد سوسة:مفصل العرب واليهود ،ص,١١٩
٣١- سامي سعيد الاحمد:اللغات الجزرية،(بغداد،١٩٨١م)،ص,٢٣
٣٢- علي عبد الواحد وافي:فقه اللغة،(القاهرة،١٩٥٦م)،ص,٣٨
٣٣- احمد سوسة:مفصل العرب واليهود ،ص,١١١
٣٤- عامر سليمان:اللغة الاكدية ،ص,٨٨
٣٥- احمد سوسة:مفصل العرب واليهود ، ص١١١ .
٣٦- عامر سليمان:اللغة الاكدية، ص,٨٩

٣٧- محمود شكر الجبوري:الكتابات الاولى من الصورية الى الهجائية،مجلة أفاق عربية (بغداد)،العددان ١-٢ لسنة ٢٠٠١م، ص,٦٢
٣٨- محمود فهمي حجازي:علم اللغة العربية،(الكويت،وكالة المطبوعات،١٩٧٣م) ،ص١٧٦-,١٧٧
٣٩ - محمود شكر الجبوري: الكتابات الاولى، ص٦٢ .
٤٠ - ينظر: عامر سليمان :اللغة الاكدية، ص,٨٩
٤١- لمزيد من التفاصيل ينظر:جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام، (بغداد،ا لمجمع العلمي العراقي، ١٩٥٧م)،ج٧،ص٣٤٢-٣٤٤؛وينظر: إبراهيم السامرائي: العربية بين أمسها وحاضرها، (بغداد،١٩٧٨م)،ص١٤٣ .
٤٢- أ.ولفنسون،تاريخ اللغات السامية، (بيروت، دار القلم،١٩٨٧م) ،ص,١٦٧
٤٣- علي عبد الواحد وافي: فقه اللغة ،ص,٧٤
٤٤- لمزيد من التفاصيل ينظر: عامر سليمان:اللغة الاكدية ،ص٩٠-٩١؛ وينظر: علي عبد الواحد وافي: فقه اللغة ،ص٢٤٦-,٢٦٦
٤٥- أ. ولفنسون،تاريخ اللغات ،ص,١٦٨
٤٦- برجشتراسر:التطور النحوي للغة العربية،ترجمة:د.رمضان عبد التواب،(القاهرة، مطبعة المجد،١٩٨٢م)،ص,٢٣
٤٧- محمود فهمي حجازي:علم اللغة ،ص,١٩٤
٤٨- لمزيد من التفاصيل ينظر:جواد علي :المفصل ، ج١ ، ص٢٥٥-٢٥٦؛وينظر: فيليب حتي واخرون: تاريخ العرب(مطول)،الطبعة الثانية، (بيروت،دارالكشاف،١٩٥٢م) ،ج١،ص٨؛وينظر:أ. ولفنسون: تاريخ اللغات ،ص٧.
٤٩. هاشم يحيى الملاح : الوسيط في تاريخ العرب قبل الاسلام ، (الموصل ، دار الكتب ، ١٩٩٤ م) ، ص ٥٥.